مدخل

لنفرض أنه قد قدر لك تنظيم رحلة علمية والإشراف عليها لطلاب المرحلة الإعدادية (المتوسطة) إلى إحدى المناطق الصحراوية، فماذا يتوقع منك أن تفعل؟

نتصور أنك سوف تركز جلَّ اهتمامك في البداية على الإعلان عن هذه الرحلة بشكل يُحفز أو يغري هؤلاء الطلاب للاشتراك فيها. فكيف يتم هذا الإعلان وما محتواه؟ أمامك اختيارات أو أساليب عدة لإتمام ذلك، نذكر منها -على سبيل المثال لا الحصر- مايلي(*):

١- تعليق عدد من اللوحات/الملصقات الملونة على جدران الأماكن التي يكثر تواجد الطلاب فيها بحيث تتضمن كل لوحة رموزاً مصورة تعبر عن البيئة الصحراوية (حيوانات، نباتات، ...الخ) إضافة إلى عبارة لفظية مثل : «اكتشف عالم الصحراء» مكتوبة بخط كبير وتحتها عبارات تُكتب بخط أصغر مثل : تعرَّف على غرائب الصحراء وعجائبها، للحياة في الصحراء سحر خاص ألا تريد أن تعيشه؟

٢- الإعلان عن مسابقة بين الطلاب -في طابور الصباح- يجيبون فيها عن عدد من الأسئلة عن البيئة الصحراوية ويشترط للدخول في تلك المسابقة أن يشترك الطالب في الرحلة المشار إليها ومن أمثلة تلك الأسئلة :

- ماذا يحدث من تغيرات في بيئة الصحراء لو سقطت الأمطار عليها طوال العام؟
- ما رأيك في وصف الصحراء بأنها قاحلة؟ فهي هي حقاً كذلك؟

٣- توزيع منشور على الطلاب يدعوهم للاشتراك في الرحلة وبه بعض الأبيات

(*) يمكن أن يتم الإعلان عن الرحلة أيضاً من خلال نشره في موقع المدرسة على شبكة الإنترنت إن وجدت.

الشعرية التي تصف الصحراء مثل :

يمتدُّ الطرْف في أرجائها	فتغريه الرؤى بعد الوَسَنْ
كثيب يحاكي الحرَّ ملمسه	هواء نقيّ ترتجيه المدَنْ
فضاء يظلُّ قيد النفوس	وشمس تقهر كل الدَجَنْ

وبفرض أنك قد وجدت أن أى من أساليب الإعلان عن الرحلة لم يكن (فاعلاً) بما فيه الكفاية لجذب عدد كبير من الطلاب للاشتراك فيها فماذا تفعل؟ نتصور أنك سوف تفكر في أساليب أخرى أكثر إثارة وجذباً لهؤلاء الطلاب للاشتراك في الرحلة وبحيث يكتمل العدد المطلوب.

والآن وقد اكتمل العدد وسافرت مع هؤلاء الطلاب إلى المنطقة الصحراوية؛ موقع الرحلة. ماذا يتوقع منك أن تفعل؟ هل تترك الطلاب ينطلقون في الموقع ويكتشفون بأنفسهم تفاصيل الحياة الصحراوية؟ بعض المفكرين التربويين يفضلون ترك الطلاب لاكتشاف تفاصيل تلك الحياة دون تدخل أو توجيه مباشر من مشرف الرحلة، إلا أننا لا نرى ذلك، فحتى يتعرف الطلاب على تلك التفاصيل ويفهمونها لابد من تدخل وتوجيه مناسبين منك .. فماذا أنت فاعل إذا أخذت برأينا هذا؟

نتصور أنك سوف تأخذ طلابك لمكان ظليل ثم تطلب منهم الوقوف أو الجلوس على هيئة دائرة أو على هيئة حرف « U » ثم تقف أنت في المقدمة بحيث يراك الجميع ثم تخبرهم بما هو متوقع منهم أن ينجزوه من مهام في هذه الرحلة، بمعنى أنك سوف تخبرهم بأهداف الرحلة بشكل واضح وجلي كأن تقول لهم : لهذه الرحلة أهداف ثم تذكر لهم أهداف مثل :

- أن تتعرفوا على أنواع النباتات والحيوانات في البيئة الصحراوية وما بينها من علاقات غذائية.
- أن تصفوا عادات وتقاليد البدو الذين يعيشون في هذه البيئة.

وبعد ذلك تطرح عليهم بعض الأسئلة التي تكشف لك عن خلفيتهم المعرفية أو تصوراتهم أو معتقداتهم السابقة عن البيئة الصحراوية وذلك حتى تصحح ما هو خطأ

عنها، وحتى تبنى تعلمهم الجديد عن البيئة الصحراوية على ما لديهم من خلفية معرفية عنها تكونت لديهم مسبقاً من خلال القراءة أو الاطلاع أو ما سمعوه أو شاهدوه عنها من قبل.

وعقب ذلك تقدم لهم فكرة مجملة عن البيئة الصحراوية كأن تعرفها لهم وتثير إجمالاً لعناصر هذه البيئة من مكونات حية وغير حية.

ثم يفترض أن تصحبهم في جولة إلى موقع الرحلة وتبدأ بجمع عينات من المكونات الحية (نباتات(*)/حيوانات(**)) وتمكنهم من مشاهدتها ولمسها، وتوضح لهم مسمياتها وتناقشهم في خصائصها وما بينها من علاقات ثم تكرر نفس الشئ مع المكونات غير الحية (الرمال، الصخور ... الخ)، ثم تأخذهم في زيارة إلى إحدى الأسر البدوية ليتعرفوا على عادات البدو وتقاليدهم عن كثب وقبيل ختام تلك الجولة تطرح عليهم أسئلة تقيس فهمهم وتمكنهم من المفاهيم والتعميمات الأساسية عن البيئة الصحراوية، وتصحح لهم أى أخطاء في هذا الفهم. وقد تختم تلك الجولة بأن تلخص لهم ما تعلموه فيها من تلك المفاهيم والتعميمات، **هل تنتهي الرحلة بالانتهاء من هذه الجولة.**

نحن لا نرى ذلك .. فبعد أن فهموا وتمكنوا من المفاهيم والتعميمات عن البيئة الصحراوية، بقى أن يفكروا بعمق فيما فهموه وتمكنوا منه، كما أن من أهداف الرحلة -أى رحلة- إثارة التفكير وتنميته لدى الطلاب .. ذلك يمكن أن يتم من خلال طرح بعض الأسئلة/الأنشطة التفكيرية عليهم. وبمقدورهم الإجابة عنها أو إنجازها بشكل فردي أو في شكل مجموعات تعاونية، ومن أمثلة تلك الأسئلة ما يلي :

- لماذا تكون دورة حياة بعض النباتات الصحراوية الحولية (مثل الأقحوان، الخبيز) التي تنمو في فصل الشتاء قصيرة للغاية؟

(*) من أمثلة النباتات الصحراوية : الأقحوان، النفل، الحميض، العفرج، العاقول.

(**) من أمثلة الحيوانات الصحراوية : السحالي، الضب، الخنافس، الجربوع.

- عَلام يدل وجود هياكل خارجية لبعض الأصداف أو القواقع البحرية في رمال الصحراء؟
- صنف النباتات الصحراوية التي جمعتها إلى عدد من المجموعات التصنيفية، وما الأساس الذي استندت عليه في هذا التصنيف؟
- ماذا يحدث لو اختفت المناطق الصحراوية في بلدك (مصر، السعودية، الجزائر ...الخ)؟

أعطهم وقتاً كافياً للتفكير للإجابة عن تلك الأسئلة أو إنجاز تلك الأنشطة التفكيرية. وفي هذه الأثناء لاحظ كيف يفكرون، استمع إليهم، قيم أدائهم دون أن يشعروا بذلك .. قدم لهم الإرشاد والعون المناسبين عند الضرورة، وفي وسعك أن تشجعهم على إعمال التفكير وحتى ينتهوا من الإجابة عن الأسئلة أو الأنشطة المشار إليها. والسؤال الآن ماذا بعد ذلك؟ **هل تنتهي الرحلة عند هذا الحد؟**

نحن لا نرى ذلك . ثمة أمر آخر نراه مهماً هو أن نثري أو نوسع خبراتهم المعرفية والمهارية والوجدانية عن البيئة الصحراوية ، فمن أهداف الرحلة -أى رحلة- أيضاً إثراء خبرات الطلاب وتوسيعها. فكيف يمكن أن يتم هذا الإثراء أو التوسيع في الخبرات؟

ثمة أساليب كثيرة يمكنك الأخذ بها لإثراء خبرات طلابك حول البيئة الصحراوية نذكر منها :

- إعطاء الفرصة لبعضهم للتجوال الحر في الموقع وجمع معلومات جديدة عن البيئة الصحراوية (مثل : نسبة ملوحة المياه، الصناعات اليدوية)، ومن ثم مناقشتهم في تلك المعلومات وكيف حصلوا عليها.
- حث مجموعة منهم على تمثيل حياة البادية في شكل رسوم توضيحية ومناقشتهم مدى شموليتها في التعبير عن تلك الحياة.

- تشجيع بعضهم على مقابلة بعض البدو وجمع عدد من أبيات الشعر الشعبي والأساطير الشعبية والأمثال والحكم التي يرددها أهل البادية. ومن ثم مناقشتهم في معناها وهل لها مقابل لدى أهل الحضر؟

وعقب الانتهاء من إثراء خبرات الطلاب تنتهي الرحلة على أمل اللقاء معهم في رحلة جديدة. فهل انتهت الرحلة بالفعل؟

نتصور أنها لم تنتهي من عقلك ووجدانك وخواطرك. لابد أنك جلست تتأمل أحداثها الرئيسة ذات العلاقة بتعلم الطلاب عن البيئة الصحراوية. فما حصيلة هذا التأمل؟ وما هي هذه الأحداث؟

نتوقع أن نتاج هذا التأمل إدراك أنه من الممكن أن يتعلم الطلاب بشكل أفضل إذا :

- استمتعوا بما يتعلمون ؛ أى أن مزج التعلم بالمتعة يشعرهم بمتعة التعلم، ومن ثم ندرك أنه من الواجب أن نجعل التدريس ممتعاً لنا ولهم.
- كان ما يتعلموه ذا صلة بحياتهم أو ذا معنى بالنسبة لهم، فلابد أن يفهموا ما يتعلموه أولا، ويتقنون ما يرتبط بهذا التعلم من معرفة ومهارات، وبذلك يجب أن نوظف جزءاً مناسباً من تدريسنا نحو التعليم للفهم والإتقان.
- فكروا فيما تعلموه، وبذلك يجب أن نوظف جزءاً من تدريسنا نحو التعليم من أجل التفكير.
- أثرينا تعلمهم بخبرات معرفية ومهارية ووجدانية توسع من آفاق هذا التعلم، وبذلك يجب أن نوظف جزءاً من تدريسنا نحو التعليم من أجل إثراء التعلم.
- تتبعنا مسار تعلمهم أولا بأول وصححنا هذا المسار عند الضرورة وبذلك يجب أن نراقب عمليتي التعليم والتدريس طوال مدة حدوثهما ونوجههما الوجهة الصحيحة متى تطلب الأمر ذلك.

كما نتوقع أنك قد لاحظت أن هنالك خمسة أحداث رئيسة -في تلك الرحلة- كانت لها علاقة بتعلم الطلاب عن البيئة الصحراوية هي :

الحدث الأول : هو تحفيز الطلاب للاشتراك في الرحلة.

الحدث الثاني : هو سعيك لإكساب هؤلاء الطلاب المعلومات (المفاهيم والتعميمات) والمهارات الأساسية عن البيئة الصحراوية من خلال عمليتي الفهم والإتقان.

الحدث الثالث : هو إثارة تفكيرهم فيما تعلموه عن تلك البيئة ومن ثم تنمية هذا التفكير لديهم.

الحدث الرابع : هو إثراء/إغناء التعلم لديهم ومن ثم توسيع نطاق هذا التعلم فلا يقتصر على مجرد تعلمهم عدد محدود من المعلومات والمهارات.

الحدث الخامس: هو سعيك لتقويم عمليتي التعلم والتدريس طوال الرحلة والاستفادة من نتائج هذا التقويم في تصحيح مسار هاتين العمليتين.

ثمة سؤال مهم فُرض إثارته الآن - نطرحه عليك هو : **كيف يمكننا استعارة أحداث الرحلة سالفة الذكر ضمن أحداث عملية التدريس. بمعنى كيف نجعل التدريس مشابهاً للرحلة المشار إليها؟** لعل السيناريو والحوار التالي يوحي لنا بشئ في هذا الصدد.